﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ
ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ
وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ
وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ
ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ۖ
وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾

وعندما جاء الأمر من الحق سبحانه وتعالى بتحويل القبلة إلى الكعبة واتجاه المسلمين فى صلواتهم إليها بعد أن كانوا يصلون ووجهتهم إلى بيت المقدس ، عند ذلك حدثت بلبلة ، وصار لكل أتباع ملة قبلة خاصة : فالمسلمون يتجهون إلى الكعبة ، واليهود يتجهون إلى بيت المقدس ، والنصارى يتجهون إلى المشرق .

وهذه الآية تؤكد أن الخلاف ليس فى مسألة اتجاه الصلاة ، وقبل تحويل القبلة كان كل من يصلى يتجه إلى مُتجه ، وتغيير المتجه ليس فيه مشقة .

والحق سبحانه وتعالى يقول لهم : لا تجعلوا أمر الاتجاه إلى الكعبة هو كل البر ؛ لأن هذا الأمر لا مشقة فيه ؛ فلا مشقة فى توجه المسلمين إلى الكعبة بعد أن كانوا متوجهين إلى بيت المقدس ، إنما المسألة هى امتثال لأمر الآمر ، فالبر إذن ليس فى

الأمور السهلة التى لا مشقة فيها ، وإنما فى الخير الواسع الكثير ، ويشمل الإيمان ، ويشمل التقوى ، ويشمل الصدق ، ويشمل الطاعة ، ويشمل الإحسان ، وكل وجوه الخير تدخل فى كلمة « البر » . فالبر معناه كبير واسع ، ومادام معناه متسعاً هكذا فكل ناحية منه تحتاج إلى مشقة .

وانظروا إلى مطلوب البر ، ومتعلقات البر التى تتطلب منكم المشقة ، ولا تختلفوا فى المسألة السهلة اليسيرة التى لا يوجد فيها أدنى تعب مثل مسألة تغيير اتجاه القبلة ، فإن كنتم تعتقدون أن ذلك هو البر نقول لكم : لا ، البر له مسئوليات تختلف ، إن مُتعلق البر هو أن يُختبر صدق الإيمان ، ويظهر الإيثار لمطلوب الله على الراحة ، ويتطلب من المؤمن أن يقبل على الطاعة وإن شقّت عليه ، ويتطلب أن يمتنع المسلم عن المعاصى ؛ وأن يعرف أن للمعاصى لذة عاجلة ، لكن عقابها كبير ، كل ذلك هو من مطلوبات البر والإيمان ، فلا تجعلوا مسألة التوجه إلى الكعبة أو إلى بيت المقدس ، أو إلى المشرق هو المشكلة ؛ لأن وجوهكم ستتولى إلى جهة ما وإن لم تؤمَروا . والبر كما نعلم هو الخير الواسع الذى يشمل كل وجوه الجمال فى الكون . يقول الحق : « ولكن البر من ءامَنَ » .

ولماذا جعل الله الحديث عن البر حديثا عن ذات مجسدة ؛ برغم أن البر معنى ؟ . إن الحق يجسد المعنى وهو البر فى ذات العبد الذى آمن لأنه سبحانه حينما يريد أن يؤكد معنى من المعانى يجعل الذات مجسدة فيه . وعلى سبيل المثال ـ ولله المثل الأعلى ـ عندما نقول : «فلان عادل» ، أى نحن نصفه بما يحقق للسامع أنه رجل يعرف العدل. ولكن عندما نقول : « فلان عدل » فكأنه هو العدل ذاته ، وكذلك عندما نقول : « فلان صادق » فمعنى ذلك أنه صاحب ذات اتصفت بالصدق ، ومن الممكن للذات أن تنفصل عن الصدق يوما ، ولكن حين نقول : « فلان صدق » فمعنى ذلك أن الصدق قد امتزج به فلا ينحل عنه أبدا ، أو أن الحق يريد أن يقول لنا : لكن صاحب البر هو من آمن بالله ، أو يقول : « ولكن البر هو بر من آمن بالله » ، أو أن الإخبار بالذات « من آمن » عن الصفة « البر » دليل على امتزاج الذات فى الصفة امتزاجا لا تتخلى عنه أبدا فكأن البر قد تجسد فيهم .

وكل هذه الأقوال يتسع لها النص القرآنى الكريم .

والحق يقول : « ولكن البر من آمن بالله » هذه بداية الإيمان ، ويأتى بعد ذلك بنهاية الإيمان وهو ضرورة الإيمان بـ « اليوم الآخر » ، إن بداية القوس هى الإيمان بالله وطرفه الأخير الإيمان باليوم الآخر .

وهنا نتساءل : وكيف يأتى الإيمان باليوم الآخر ؟

نقول : يأتى الإيمان باليوم الآخر بأن تؤمن بالله ثم تؤمن بما يخبرك به الله ، فلا تقل : أنا جعلتهما فى صف واحد ، بل الإيمان بالله أولا ، وبعد ذلك الايمان بما أخبرنى به الله ، وقد أخبر سبحانه : أن هناك يوماً آخر ، فصدقت ما أخبر به . ونأتى مسألة الإيمان بالملائكة فيقول الحق : « والملائكة » فكيف نؤمن بخلق من خلق الله لا نراه ؟

إننا مادمنا قد آمنا بالقمة ، وهى الإيمان بالله ، والله أخبرنا بأن هناك ملائكة ، وحتى لو كان وجود الملائكة غيبيا فنحن نؤمن بها ؛ لأن الذى أخبر بها هو الله ، وكذلك نؤمن بالجن برغم أننا لا نراه ، وكل ما يتعلق بالغيبيات هو إخبار ممن آمنت به ؛ لذلك تؤمن بها .

والمسائل الإيمانية كلها غيبية ، ولا تقول فى الأمر الحسى : « إننى آمنت به » ، إنما تقول : « آمنت » فى الأمر الغيبى ؛ لأنه أمر غيبى لا تأنس به الحواس والإدراكات ، وتريد أن تجعله عقيدة ، والعقيدة هى أمر يُعقد فلا ينحل أبدا ، ولأنه أمر غيبى فربما ينفلت منا ؛ لأنه لو كان أمرا مشهديا لما غفل عنه الإنسان أبدا ؛ لأن مشهديته ستجعلك تتذكره ، إنما هو أمر غيبى ، ويسمى عقيدة ، أى أمراً معقوداً لا يُحل أبدا .

والقمة العقدية هى أن تؤمن بالله ، ثم تؤمن بما يخبرك به الله من غيبيات لا دليل لك عليها إلا أن الله قال بها ، فإن رأيت فى متعلقات الإيمان أمورا محسة فاعلم أن

الجهة فى الإيمان منفكة ؛ لأنه سيأتى ذكر الملائكة واليوم الآخر وكلاهما غيب ، وبعد ذلك سيذكر الكتاب والنبيين ، وهما محسوسان .

صحيح أن الكتاب أمر محس والنبيين كذلك ، لكننا لم نحس أن الله أنزل الكتاب ، وأن الله بعث النبيين . ونحن لم نكن على قيد الحياة وقت نزول الكتاب ولا وقت بعث النبى ، وجاء إيماننا لأننا صدقنا أن الله أنزل وحيا على محمد صلى الله عليه وسلم ، هذا الوحى نزل بالكتاب ، وأن الله اختار محمدا صلى الله عليه وسلم ليكون مبلغا لهذ الوحى ، وكل هذه أمور غيبية لم نرها .

والغيبيات هى أرضية الحركة الإيمانية ؛ أو أساس الإيمان .

وبعد ذلك تنتقل الآية من الحديث عن الأمر العقدى ، لتبين لنا أن البر مكون من أمور عقدية هى أساس لأمور حركية ، والأمور الحركية هى المقصودة من كل تدين . فالحق سبحانه لا يعنيه أن يؤمن به أحد ، ولا يعنيه أن تؤمن بملائكته ، وكتبه ورسله ، لكن الأمر الذى يريده الله هو أن تنتظم حركة الحياة فى الأرض بمنهج الله ، ولذلك ينتقل الحديث إلى الأمر المادى فيقول : « وآتى المال على حبه » كأن الإنسان قد ملك المال وبعد ذلك « آتاه » . وعندما تقول : « آتيت » فهى تعنى أعطيت ، وهى تختلف عن « أتيت » التى تعنى « جئت » .

وما هو المال ؟ إن المال هو كل ما يتمول إلا أننا نصرفه إلى شىء يمكن أن يأتى بكل متمول وأسميناه بالنقد . وأصبحت له الغلبة ؛ لأننا نشترى بالنقد كل شىء ، لكن المعنى الأصلى للمال هو كل ما يتمول ، وكيف يجىء المال لك أو لى أو لأى إنسان ؟ . أخَرَجَ أحد منا من بطن أمه وهو يملك شيئا ؟ . لا .

إن ما يملكه الإنسان يأتى إما من متحرك فى الحياة قبلك إن كان والدك أو جدك ، وإما من حركتك أنت .

إذن لا يقال : « آتى المال » إلا إذا ثبتت له حركة ذاتية يصير بها متمولا ، أو ورث

عن متمول ، والمتمول هو الذى يتحرك فى الحياة حركة قد تكون لنفسه ، وإن اتسعت حركته فستكون لأبنائه ، وإن اتسعت أكثر فستكون لأحفاده .

والحق يقول : « وآتى المال على حبه » وكلمة الحب مصدر ، والمصدر أحيانا يضاف إلى فاعله ، وأحيانا يضاف إلى المفعول الواقع عليه ، مثلا كلمة « ضرب » نحن نقول : ضرب زيد عُمَرَ ، وهكذا نجد ضاربا هو « زيد » ومضروبا هو « عمر » . وإذا قيل : « أعجبنى ضَرْبُ زيدٍ » . إن قلت : « لعمر » عرفنا الضارب والمضروب ، وإن سكت عند قولك : أعجبنى ضرب زيد » فهى تحتمل معنيين ، الضرب الصادر من زيد ، أو الضرب الواقع على زيد . فساعة تأتى بالمصدر ويضاف إلى شىء فيصح أن يضاف إلى فاعله وأن يضاف إلى مفعوله .

« وآتى المال على حبه » يمكن أن نفهمها على أكثر من معنى : يمكننا أن نفهمها على أنه يعطى المال وهو يحب المال ، ويحتمل أن نفهمها على أنه يؤتى المال لأنه يحب أن يعطى مما يحبه من المال عملا بقول الله تعالى « لن تنالوا البر حتى تنفقوا ما تحبون » . . وهى تحتمل المعنيين . ويمكن أن تُصَعِّد المعنى فيصير « وآتى المال على حب الإيتاء أى الاعطاء » أى يُحب الإعطاء وترتاح نفسه للاعطاء ، ومن الممكن تصعيدها تصعيدا آخر يشمل كل ما سبق فيصبح المعنى : وآتى المال على حب الله الذى شرع له ذلك ، وكل هذه المعانى محتملة .

والحق يقول :

﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾

(سورة الإنسان)

ويقول سبحانه أيضا :

﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾

(من الآية ٩٢ سورة آل عمران)

وتعطينا كل هذه الآيات وضوح الفرق بين الملكية ، وبين حب المملوك ، فمن الممكن أن تكون لديك أشياء كثيرة أنت مالكها ، ولكن ليس كل ما تملكه تحبه ، فعندما تؤتى المال فمن المحتمل أن تكون قد نزعته من ملكيتك وأنت لا تحبه . وبذلك أخرجته من ملكيتك فقط ، وإما أن تكون محبا للشىء الذى تعطيه لغيرك ، وبذلك تكون قد أخرجته من ملكيتك ، ومن حبك له .

وإما أن يكون المال الذى فى يدك مجرد أداة لك ولغيرك وليس له مكانة فى قلبك ، ولذلك يقول الشاعر :

لا أبالى توفير مالى لدهرى
منفقا فيه فى رخاء وبأس
إن يكن فى يدى وليس بقلبى
فهو ملكى وليس يملك نفسى

إن قوله الحق : « آتى المال على حبه » تعطينا إما منزلة إخراجه من الملك وإما منزلة إخراجه من القلب الذى يحبه . ولذلك يعيب الحق على جماعة من الناس يريدون العمل على طاعة الله ، لكنهم لا ينفقون لله إلا مما يكرهون . ويقول الله فى حقهم « ويجعلون لله ما يكرهون » .

ولكن لمن يكون ذلك المال الذى ينطبق عليه القول : « وآتى المال على حبه » ؟ .

إنه ، لـ « ذوى القربى » ألا ترون إنسانا له حركة فى الحياة قد اتسعت لنفسه ، ثم نرى قرباه الذين لا يقدرون على الحركة محتاجين ، كيف تكون حالة نفسيته إذن ؟ . لابد أن تكون نفسية متعبة ؛ لأن المفروض فى الإنسان المؤمن أن يجعل كل الناس قرباه ، ونذكر فى هذا المقام قصة معاوية عندما كان أميرا للمسلمين ، ودخل عليه الحاجب وهو يقول : يا أمير المؤمنين رجل بالباب يدعى أنه « أخوك » ، فقال معاوية : أبلغ بك الأمر ألا تعرف إخوتى ؟ أدخله .

فلما دخل الرجل قال له معاوية : أى إخوق أنت ؟
قال : أخوك من آدم .
فماذا قال معاوية : ؟.
قال : رحمٌ مقطوعة ، والله لأكونن أول من وصلها . وأكرمه .

فإذا كان الانسان لا يستطيع أن يصل قرباه من الناس كافة ، ألا يستطيع أن يصل خاصة أقاربه ؟. كيف يستطيب المؤمن ـ إذن ـ نعيم الحياة وهو يجد أقاربه محتاجين ، حتى لو نظرنا بعيدا عن الدين والإنسانية ، ألا تستحق المسألة أن يجود الإنسان بما عنده على أهله ؟.

وفى دائرة الإيمان حين يجعل الله حركة الحياة فى التكافل دوائر ، فهو سبحانه يريد أن يوزع خير المجتمع على المجتمع ؛ لأنه سبحانه حينما أراد استبقاء النوع شرع لنا طهر الالتقاء بين الرجل والمرأة بعقد علنى وشهود ، لماذا ؟. لأن الثمرة من الزواج هى الأبناء التى ستأتى بقطاع جديد من البشر فى الكون ، وهذا القطاع لابد أن يكون محسوبا على الرجل أمام الناس ، وإن لم يرع الرجل فى أبنائه حق الله يلمه الناس على ذلك لأنهم أبناؤه .

ولذلك عندما نرى شخصا يخفى زواجه ، كأن يتزوج زواجا عرفيا مثلا نقول له : أنت تريد أن تأتى بثمرة منك ثم تنكرها ، فيأتى أبناء غير محسوبين عليك . ولذلك فلنكن على ثقة من أن كل مشرد فى الأرض نراه هو نتيجة لخطيئة إما معلنة ، وإما لا يقدر على إعلانها رجل لم يتحمل مسئولية علاقته بالمرأة ، ولا يهمل رجل ولدا منسوبا له إلا إذا تشكك فى نسبه إليه ، وهذا ما يجعله ينكر نسبه .

إذن فعملية الطهر التى أرادها الله سبحانه وتعالى فى الالتقاءات بين الرجل والمرأة ، إنما أرادها سبحانه لأنه يشرع لبناء أجيال جديدة ، ينشأ منها مجتمع المستقبل ، وقبل أن يوجد هؤلاء الأبناء لابد أن يكون لهم رصيد وأساس يتحملهم ، فجعل الله لنا الأولاد والأحفاد ، ويوصى الله الأبناء على الوالدين قبل ذلك ، ثم

تتسع الدائرة للقرابة القريبة .

وهات واحداً واصنع له هذه الدائرة ، وهات آخر واصنع له الدائرة نفسها ، وثالثاً واصنع له دائرته ، واصنع إحصاء للقادرين وحدد دوائرهم العائلية ، ستجد كل إنسان في الكون يدخل في دائرة من هذه الدوائر ، فإن رأيت عوجاً فاعلم أن مركز الدائرة قد تخلى عن محيط الدائرة .

والله سبحانه وتعالى يقول : « وآتى المال على حبه ذوى القربى » ، تأمل ـ إذن ـ الحث على البر تجد أن أول ما جاء فيه هو إيتاء ذوى القربى ؛ لأن لهم مكانة خاصة ؛ وعندما يؤتى كل منا قرباه ويحملهم على فائض ماله وفائض حركته فلن يوجد محتاج ، وإذا وُجِدَ المحتاج فسيكون نزراً يسيراً ، وتتسع له الزكاة الواجبة .

أو كما قال بعض العلماء : المقصود بذوى القربى هم قربى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقولون ذلك ؛ لأن فى القرآن آية تقول :

﴿ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ (٢٣) ﴾

(سورة الشورى)

ولماذا قربى رسول الله ؟

لأنهم ليس لهم حق فى الزكاة ؛ حتى يبرأ المبلغ عن الله من أى نفع يعود عليه ، أو يعود على آله ، لذلك منع الله عنهم أى حق فى الزكاة . وكأن الله يريد أن يقول لنا : لا يصح أن تجعلوا الناس الذين رفعهم الله وكرمهم عن أخذ الزكاة التى يأخذها أى فقير منكم ممنوعين من أخذ كل شىء ، فلا بد أن تتخذوهم أقارب لكم بحيث لا تجعلونهم محتاجين .

وعلى فرض أن الآية تريد قُرباناً نقول : « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم » ، فقرباه وآله أولى من قربانا وأهلنا .

وبعد ذلك جاء الله بقوله : « واليتامى » ، ونعرف أن اليتيم هو من فقد أباه ولم يبلغ مبلغ الرجال . واليتيم فى الإنسان غير اليتيم فى الحيوان ؛ فاليتيم فى الحيوان هو من فقد أمه ، ولكن اليتيم فى الإنسان هو من فقد أباه . واليتيم لا يكون له وصى إلا إذا كان عنده شيء من مال ، عندئذ يكون هناك وصى لإدارة أمور اليتيم . ولذلك جاء الحق بالأمر بإعطاء المال على حبه لليتامى ، ولم يقل:« لذوى اليتامى » . فربما كان هناك يتيم ضائع لا يتقدم أحد للوصاية عليه ، وليس عنده ما يستحق الوصاية ؛ لذلك فعلينا أن نؤتى اليتيم من مال الله حتى ندخل فى صفات البر ، أو نعطى للوصى على اليتيم لينفق عليه إن كان له وصى .

وكذلك نؤتى المال للمساكين ، والمسكين مأخوذة من السكون ، وهو الإنسان الذى لا قدرة له على الحركة ، كأن استخذاءه وذله فى الحياة منعاه من الحركة .

واختلف الفقهاء حول من هو الفقير ، ومن هو المسكين ، قال بعضهم : إن الفقير هو من لا يملك شيئا ، والمسكين يملك ما لا يكفيه ، أى يملك شيئا دون ما يحتاجه ، وقال البعض الآخر : إن الفقير هو الذى يملك ما هو دون حاجته ، والمسكين من لا يملك .

وعلى كل حال فقد شاءت حكمة الله عز وجل أن يجعل للفقير نصيبا من البر . وللمسكين أيضا نصيبا كالآخر ، والخلاف بين العلماء لا يؤدى إلى منع أحدهما من المال ، لأن كُلاًّ منهما ـ المسكين والفقير ـ يستحق من مال الله . وعلى ذلك فالخلاف لا طائل من ورائه .

وكذلك نؤتى المال لابن السبيل ، والسبيل هو الطريق ، وابن السبيل هو ابن الطريق ، وعادة ما يُنسب الإنسان إلى مكانه أو إلى بلده ، فإذا قيل ابن السبيل ، فذلك يعنى أنه ليس له مكان يأوى إليه إلا الطريق ، فهو رجل منقطع ، وقد يكون ابن سبيل ذا مال فى مكانه ، إلا أن الطريق قطعه عن ماله وباعد بينه وبين ما يملك ، أو يكون ذا مال وسرق منه ماله ، فهو منقطع .

ولماذا جعل الله نصيبا من البر لابن السبيل ؟. لقد جعل الله نصيبا من المال لابن السبيل حتى يفهم المؤمن أن تكافله الإيمانى متعدٍ إلى بيئة وجوده ، فحين يوجد فى مكان وينتقل إلى مكان آخر يكون فى بيئة إيمانية متكافلة .

ونؤتى المال أيضا للسائلين أى الذين يضعون أنفسهم موضع السؤال ، أعط من يسألك ولو كان على فرس ؛ لأنك لا تعرف لماذا يسأل ، إن بعضاً من الناس يبررون الشح فيقولون : إن كثيرا من السائلين هم قوم محترفون للسؤال ، ونقول لهم : مادام قد سأل انتهت المسألة ، وعمدتنا فى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :

« أعطوا السائل وإن جاء على ظهر فرس »[1]

ومادام قد عرض نفسه للسؤال فأعطه ولا تتردد .

قد تظن أنه يحمل حقيبة ممتلئة بالخبز ، أو يخفى المال بعيداً . وأقول : قد يكون عنده خبز لكنّه لا يكفى أولاده ، وقد يخفى المال الذى لا يكفيه ، ولن تخسر شيئاً من إعطائه ، فلأن تخطىء فى العطاء ، خير من أن تصيب فى المنع .

ونؤتى المال أيضاً لمن هم « فى الرقاب » وكلمة « رقبة » تُطلق فى الأصل اللغوى على أصل العنق ، وليس على العنق نفسه . وتطلق كلمة الرقبة على الذات كلها ، أى الإنسان فى حد ذاته ، لماذا ؟ لأن حياة الإنسان يمكن أن تملكها من الرقبة ، فتستطيع أن تمسك إنساناً من رقبته وتتحكم فيه وتضغط عليه ضغطاً تمنع تنفسه إلى أن يموت ، لذلك تطلق الرقبة ويراد بها الشخص ذاته ، وفى ذلك يقول القرآن :

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة البلد)

أى فك الأسير ، إذن « فى الرقاب » تعنى فك أسر العبد ، ويمكن لصاحب البر أن

---

(١) هذا الحديث أخرجه ابن عدى فى الكامل عن أبى هريرة رضى الله عنه وهو ضعيف .

يشترى العبيد ويعتقهم ، أو يسهم فى فك رقابهم فذلك لون من ألوان تصفية الرق ، وفى تصفية الرِّق هناك شىء اسمه التدبير ، وشىء اسمه المكاتبه

هب أن عبداً يخدمك وبعد ذلك ترى أنه أخلص فى خدمتك ، فثمناً لإخلاصه فى خدمتك مدة طويلة قررت أن تُدَبّره بعد موتك ، أى تعطيه حريته فيصبح حراً بعد موتك ، فكأنك علقت عبوديته على مدى حياتك ، وبعد انتهاء حياتك يصبح مدبراً أى حراً ، ولا يدخل فى تركتك ، ولا يُورَث .

وقد تكاتبه على مال فتقول له : يا عبد أنا أكاتبك على مائة جنيه ، وأطلق حركتك لتتصرف أنت وتضرب فى الحياة وتكسب وتأتى لى بالمائة جنيه ، ثم أطلق سراحك ، وفى هذه الحالة فإن على أهل البر أن يعاونوا هذا المُكاتب ليؤدى مال الكتابة حتى يفك رقبته من الأسر .

ومن البر أيضا إقامة الصلاة ، كأن المعنى : « ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة » ونعرف أن معنى إقامة الصلاة هى أداء الصلاة فى أوقاتها على الوجه المطلوب شرعاً .

ومن البر أن نؤتى الزكاة ، فكأن كل ما سبق « وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين فى الرقاب » لا علاقة لها بالزكاة ، إن كل ذلك هو برّ آخر غير المطلوب للزكاة ، لأن الزكاة لو كانت تدخل فيما سبق لما كان الله كرَّرها فى الآية .

هذه أوجه البر التى ذكرتها الآية من إيتاء ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب* وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وكل ذلك لمن أراد أن يدخل فى مقام الإحسان ، فمقام الإحسان كما نعرف هو أن تلزم نفسك بشىء لم يفرضه الله عليك ، إنما تحس أنت بفرح الله بك ورضاه عنك فيقبله الله منك .

راجع أصله وخرّج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

ولذلك عندما سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل فى المال حق غير الزكاة ؟ ذكر هذه الآية :

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧) ﴾

(من سورة البقرة)

إذن ، فتلك أوجه البر المطلوبة ، والزكاة أيضاً مطلوبة . ففى مصرف الزكاة لا يوجد ذوو القربى ولا اليتامى . صحيح أن فى مصارف الزكاة إعطاء المسكين وابن السبيل ، لكن فى البر هناك أشياء غير موجودة فى الزكاة ، فكأنك إن أردت أن تفتح لنفسك باب البر مع الله ، فوسع دائرة الإنفاق ، وستجد أن البر قد أخذ حيزاً كبيراً من الإنفاق ، لأن المنفق مستخلف عن الله . فالله هو الذى استدعى الإنسان إلى الوجود ، وما دام هو المستدعى إلى الوجود فهو سبحانه مكلف بإطعامه ، وأنت إذا أنفقت على المحتاج الذى استدعاه الله للوجود ، فإنك تتودد إلى الله بمساعدة المحتاجين من خلقه دون أن يلزمك به الله، ولذلك يقول الله عز وجل :

﴿ مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾

(من الآية ٢٤٥ سورة البقرة)

إذا كان هو سبحانه الذى أعطى المال ، فكيف يقول: أقرضنى؟ . نعم ، لأنه سبحانه لا يرجع فيما وهبه لك من نعمة المال ، إن المال الذى لك هو هبة من الله، ولكن إن احتاجه أخ مسم، فهو لا يقول لك « اعطه من عندك أو اقرضه من

عندك » ، إنمايقول لك : « أقرضني أنا ، لأني أنا الذى أوجدته فى الكون ورزقه مطلوب منى » ، فكأنك حين تعطيه تقرض الله ، وهذا معنى قوله : « من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً » . إنه سبحانه وتعالى متفضل بالنعمة ثم يسألك أن تقرضه هو .

ولنضرب على ذلك مثلاً من أمر الدنيا ـ وسبحانه وتعالى منزه عن كل مثل وله المثل الأعلى ـ هب أنك محتاج وفى ضائقة مالية ، وعندك أولاد ولهم مبالغ مدخرة مما كنت تعطيهم من مال فتقول لهم أقرضونى ما معكم من مال ؛ وسأرده لكم عندما تمر الضائقة . كأنك لم ترجع فى هبتك وما أعطيته لهم من مال ، إنما اقترضته منهم ، كذلك يفعل الله سبحانه وتعالى .

وكذلك لنا عبرة وعظة من السيدة فاطمة رضى الله عنها عندما دخل عليها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فرآها ممسكة بدرهم ، والدرهم يعلوه الصدأ وأخذت تجلوه ، فسألها أبوها : ما تصنعين يا فاطمة ؟ قالت : أجلو درهما . قال : لماذا ؟ قالت : لأنى نويت أن اتصدق به ، قال : وما دمت تتصدقين به فلماذا تجلينه ؟ قالت : لأنى أعلم أنه يقع فى يد الله قبل أن يقع فى يد المحتاج .

ومن البر أيضا أن يفى الإنسان بالعهد ، فالحق يقول : « والموفون بعهدهم إذا عاهدوا » . وما معنى العهد ؟ . إن هناك عهداً ، وهناك عقد . والعهد يوجد من طرفين تعاهدا على كذا ، لكن قد يستطيع أحدهما العطاء ولا يستطيع الآخر الرد . والعقد يوجد بين طرفين أيضاً ، أحدهما يعطى ويأخذ ، والآخر يعطى ويأخذ .

ومن البر أن تكون من « الصابرين فى البأساء والضراء » . ولنا أن نلحظ أن الحق جاء بـ « الموفون بعهدهم » مرفوعة لأنها معطوفة على خبر لكنَّ البر ، فلماذا جاء « بالصابرين » منصوبة ؟ فماذا يعنى كسر الإعراب ؟ إن الأذن العربية اعتادت على النطق السليم الفصيح فإذا كان الكلام من بليغ نقول : لَمْ يكسر الإعراب هنا إلا لينبهنى إلى أن شيئاً يجب أن يُفهم ، لأن الذى يتكلم بليغ ومادام بليغاً وقال قبلها :

« والموفون » ثم قال : « والصابرين » فلابد أن يكون هناك سبب ، ما هو السبب ؟ .

إن كل ما سبق مطيةُ الوصول إليه هو الصبر ، إيتاء المال على حبه ذوى القربى و . . و . . ولذلك أراد الله أن ينبه إلى مزية الصبر فكسر عنده الإعراب ، وكسر الإعراب يقتضى أن نأتى له بفعل يناسبه فجاء قوله تعالى : « والصابرين » وكأن معناها : وأخص الصابرين ، وأمدح الصابرين .

إذن كسر الإعراب هنا غرضه تنبيه الآذان إلى أن شيئاً جديداً استحق أن يُخالف عنده الإعراب . لأن الصبر هو مطية كل هذه الأفعال ، فالذى يقدر فى الصبر على نفسه بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة . وإيتاء المال على حبه هو الذى فاز وظفر ، إذن كل ذلك امتحان للصبر . ومن هنا خص الله « الصابرين » بإعراب مخالف حتى نفهم أنه منصوب على المدح ، أو على الاختصاص .

ولماذا خص الله الصابرين بالمدح ؟ .

لأن التكليفات كلها تعطى مشقات على النفس ، ولا يستطيع تحمل هذه المشقات إلا من يقدر على الصبر . ومادام قد قدر على الصبر فكل ذلك يهون . ومن هنا خص الله الصبر بهذه الميزة .

والمهم أن الآية جاءت بالصابرين بعد « والموفون » حتى تكون النقلة ملحوظة ومتيقنة ، بأن الإعراب فيما سبق «والصابرين » تقديرى معطوف أى هو معطوف على خبر « ولكن البر من آمن بالله » . . فجاءت « والموفون » مرفوعة لنفهم أنها معطوفة على خبر « ولكن » ، ثم جاء ما بعدها « والصابرين » منصوبة ، حتى نلحظ الفرق بين المعنيين ، ولو جاءت مرفوعة مثل ما قبلها فربما مرت علينا ولم نلحظها . « والصابرين فى البأساء والضراء » البأساء هو البؤس والفقر ، وهذا فى الأحوال ، نقول : فلان حاله بائس . « والضراء » هى الألم والوجع والمرض ، وهى تصيب البدن والجسد . « وحين البأس » أى حين الحرب عندما يلتقى المقاتل بالعدو ويصبر ويصمد ليقاتل .

إذن صفة الصبر تناولت ثلاثة أمور : فى البأساء ، أى فى الفقر ، وفى المرض ، وفى الحرب مع العدو ، صابر فى كل هذه الأمور .

ولذلك جاء فى الحديث الشريف :

« ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كَفَّرَ الله بها عنه حتى الشوكة يُشاكها »[1]

ويقول الحق عن الذين دخلوا إلى رحاب البر : « أولئك الذين صدقوا » فـ « من آمن بالله واليوم الأخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا » .

ماذا تعنى صدقوا ؟ الصدق هو مطابقة النسبة الكلامية للواقع الفعلى . وأولئك صدقوا فى إعلان إيمانهم ، وواقع حركتهم فى الحياة ، وصدق قولهم : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

إذن فصدق إيمانك متوقف على أن تكون حركة حياتك مناسبة لمقتضيات إيمانك . فإن آمنت وأسلمت وجاءت حركة حياتك مناقضة لإعلان إسلامك ، نقول : أنت غير صادق ، ولكن إذا وُجدت صفات الإيمان فى إنسان نقول له : لقد صدقت فى إيمانك ، لأن حركة حياتك انسجمت مع واقعك الإيمانى . وما أكثر الناس الذين يقولون ولا يفعلون ، وهم منسوبون إلى الإسلام بالكلام .

وما نتيجة صدق المؤمنين ؟ يجيبنا الحق بوصفهم : « أولئك هم المتقون » . وساعة تسمع كلمة « متقون » أو « اتقوا » . فذلك يعنى أنهم جعلوا وقاية بينهم وبين شىء ، ولا يُطلب منك أن تجعل وقاية بينك وبين شىء إلا إن كنت لا تتحمل هذا الشىء .

---

(١) رواه البخارى فى كتاب المرضى

ومثل ذلك قوله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾

(من الآية ٦ سورة التحريم)

أى اجعلوا بينكم وبين النار حاجزاً . وقلنا: إن من العجب أن كلمة « اتقوا » تـأتى إلى الشىء الذى هو « اتقوا النار » وتأتى إلـى «اتقوا الله » ، كيف يكون التقوى فى متناقضين ؟

نعم : لأن معنى اتقوا النار ، أى اجعلوا بينكم وبينها وقاية ، وهل النار فاعلة بذاتها أم بتسليط الله لها على العاصى ؟ إنها فاعلة بتسليط الله لها على العاصى . إذن اتقوا الله معناها اتقوا متعلق صفات الجلال من الله ، لأن لله صفـات جمال وصـفات جلال ، فاجـعلوا بينكم وبين صفات الجلال من الله وقاية ، لأنكم لا تتـحملون غضب الله ، ولا قهر الله ، ولا بطش الله ، فاجـعلوا بينكم وبين صفات جـلاله وقاية ، ومن آثار صفات جلاله النار . فالمسألة متساوية ولا تناقض فيها .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾

وساعة ينادى الله « يأيها الذين آمنوا » فهذا النداء هو حيثية الحكم الذى سيأتى ، ومعنى هذا القول : أنا لم أكلفكم اقتحاما على إرادتكم ؛ أو على اختياركم ، وإنما كلفتكم لأنكم دخلتم إلى من باب الإيمان بى ، ومادمتم قد آمنتم بى فاسمعوا منى التكليف .

فالله لم يكلف من لم يؤمن به ، ومادام الله لا يكلف إلا من آمن به فإيمانك به جعلك شريكا فى العقد ، فإن كتب عليك شيئا فأنت شريك فى الكتابة ، لأنك لو لم تؤمن لما كتب ، فكأن الصفقة انعقدت ، ومادامت الصفقة قد انعقدت فأنت شريك فى التكليف ، ولذلك يقول الله : « كُتب » بضم الكاف . ولم يقل « كَتب » بفتح الكاف . وتلحظ الفرق جليا فى الأشياء التى للإنسان دخل فيها ، فهو سبحانه يقول :

﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ﴾

(من الآية ٢١ سورة المجادلة)

إنه سبحانه هنا الذى كتب ، لأنه لا شريك له . عندما تقرأ « كُتب عليكم » فافهم أن فيها إلزاما ومشقة ، وهى على عكس « كَتب لكم » مثل قوله تعالى :

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾

(من الآية ٥١ سورة التوبة)

إن « كَتب لنا » تشعرنا أن الشىء لمصلحتنا . وفى ظاهر الأمر يبدو أن القصاص مكتوب عليك ، وساعة يكتب عليك القصاص وأنت قاتل فيكون ولى المقتول مكتوبًا له القصاص ، إذن كل « عليك » مقابلها « لك » ، وأنت عرضة أن تكون قاتلا أو مقتولا . فإن كنت مقتولا فالله كتب لك . وإن كنت قاتلا فقد كتب الله عليك . لأن الذى « لى » لابد أن يكون « على » غيرى ، والذى « علىّ » لابد أن يكون « لغيرى » . فالتشريع لا يُشرع لفرد واحد وإنما يشرع للناس أجمعين .

عندما يقول : « كُتب عليكم القصاص » ، ثم يقول فى الآية التى بعدها : « ولكم فى القصاص حياة » ، فهو سبحانه قد جاء بـ « لكم » ، و« عليكم » . « عليكم » للقاتل ، و« لكم » لولى المقتول . فالتشريع عادل لأنه لم يأت لأحد على حساب أحد ، والعقود دائما تراعى مصلحة الطرفين . « يأيها الذين آمنوا كُتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر » .

من هو الحر ؟ الحر ضد العبد وهو غير مملوك الرقبة ، والحر من كل شىء هو أكرم ما فيه ، ويقال : حر المال يعنى أكرم ما فى المال . و« الحر » فى الإنسان هو من لا يحكم رقبته أحد . و« الحر » من البقول هو ما يؤكل غير ناضج ، أى غير مطبوخ على النار ، كالفستق واللوز .

والحق سبحانه يقول : « الحر بالحر » ، وظاهر النص أن الحر لا يُقتل بالعبد ، لأنه سبحانه يقول : « الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى » ، لكن ماذا يحدث لو أن عبداً قتل حراً ، أو قتلت امرأة رجلاً ؛ هل نقتلها أم لا ؟

إن الحق يضع لمسألة الثأر الضوابط ، وهو سبحانه لم يُشَرِّعْ أن الحر لا يُقتل إلا بالحر ، وإنما مقصد الآية أن الحر يُقتل إن قتل حراً ، والعبد يُقتل إن قتل عبداً ، والأنثى مقابل الأنثى ، هذا هو إتمام المعادلة ، فجزاء القاتل من جنس ما قتل ، لا أن يتعداه القتل إلى من هو أفضل منه . إن الحق سبحانه وتعالى يواجه بذلك التشريع فى القصاص قضية كانت قائمة بين القبائل ، حيث كان هناك قتل للانتقام والثأر .

ففى الزمن الجاهلى كانت إذا نشأت معركة بين قبيلتين ، فمن الطبيعى أن يوجد قتلى وضحايا لهذا الاقتتال ، فإذا قُتل عبد من قبيلة أصرت القبيلة التى تملك هذا العبد أن تُصَعِّد الثأر فتأخذ به حراً ، وكذلك إذا قُتلت فى تلك الحرب أنثى ، فإن قبيلتها تُصعد الثأر فتأخذ بها ذكراً .

والحق سبحانه وتعالى أراد أن يحسم قضية الثأر حسماً تدريجيا ، لذلك جاء بهذا

الأمر «الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى» . إذن ، فالحق هنا يواجه قضية تصعيدية فى الأخذ بالثأر ، ويضع منهجاً يحسم هذه المغالاة فى الثأر .

وفى صعيد مصر ، مازلنا نعانى الغفلة فى تطبيق شريعة الله ، فحين يُقتل رجل من قوم فهم لا يثأرون من القاتل ، وإنما يذهبون إلى أكبر رأس فى عائلة القاتل ليقتلوه . فالذين يأخذون الثأر يريدون النكاية الأشد ، وقد يجعلون فداء المقتول عشرة من العائلة الأخرى ، وقد يمثلون بجثثهم ليتشفوا ، وكل ذلك غير ملائم للقصاص . وفى أيام الجاهلية كانوا يغالون فى الثأر ، والحق سبحانه وتعالى يبلِّغ البشرية جمعاء بأن هذه المغالاة فى الثأر تجعل نيران العداوة لا تخمد أبداً . لذلك، فالحق يرد أمر الثأر إلى حده الأدنى ، فإذا قتلت قبيلة عبداً فلا يصح أن تُصعِّد القبيلة الأخرى الأمر فتأخذ بالعبد حراً .

إذن ، فالحق يشرع أمراً يخص تلك الحروب الجماعية القديمة ، وما كان يحدث فيها من قتل جماعى ، وما ينتج عنها بعد ذلك من مغالاة فى الثأر ، وهذا هو التشريع التدريجى ، وقضى سبحانه أن يرد أمر الثأر إلى الحد الأدنى منه ، فإذا قتلت قبيلة عبداً فلا يصح أن تُصعِّد القبيلة الأخرى الثأر بأن تقتل حراً . والحق يشرع بعد ذلك أن القاتل فى الأحوال العادية يتم القصاص منه بالقتل له أو بالدية . فقد جاءت آية أخرى يقول فيها الحق :

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥) ﴾

(سورة المائدة)

وهكذا يصبح القصاص فى قتل النفس يتم بنفس أخرى ، فلا تفرقة بين العبد أو الحر أو الأنثى ، بل مطلق نفس بمطلق نفس . وها هو ذا الحق سبحانه وتعالى يواجه

بتقنين تشريع القصاص قضية يريد أن يميت فيها لدد الثأر وحنق الحقد . فساعة تسمع كلمة قصاص وقتل ، فمعنى ذلك أن النفس مشحونة بالبغضاء والكراهية ، ويريد أن يصفى الضغن والحقد الثأرى من نفوس المؤمنين . إن الحق جل وعلا يعطى لولى الدم الحق فى أن يقتل أو أن يعفو ، وحين يعطى الله لولى الدم الحق فى أن يقتل ، فإن أمر حياة القاتل يصبح بيد ولى الدم ، فإن عفا ولى الدم لا يكون العفو بتقنين ، وإنما بسماحة نفس ، وهكذا يمتص الحق الغضب والغيظ .

وبعد ذلك يرقق الله قلب ولى الدم فيقول : « فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان » .

وإذا تأملنا قوله : « فمن عفى له من أخيه » فلنلاحظ النقلة من غليان الدم إلى العفو . ثم المبالغة فى التحنن ، كأنه يقول : لا تنس الأخوة الإيمانية « فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف » .

وساعة يقول الحق كلمة « أخ » فانظر هل هذا الأخ اشترك فى الأب ؟ مثل قوله تعالى : « وجاء إخوة يوسف » . ثم يرتقى بالنسب الإيمانى إلى مرتبة الأخوة الإيمانية ، فيقول : « إنما المؤمنون إخوة » يعنى إياكم أن تجعلوا التقاء النسب المادى دون التقائكم فى القيم العقائدية .

والأصل فى الأخ أن يشترك فى الأب مثل : « وجاء إخوة يوسف » ، فإن كانوا إخوة من غير الأب يسمهم إخوانا ، فإن ارتقوا فى الإيمان يسمهم إخوة . وعندما وصفهم بأنهم إخوان قال : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » . لقد كانت بينهم حروب وبغضاء وشقاق ، لم يصفهم بأنهم إخوة ؛ لأنهم لازالوا فى الشحناء ، فوصفهم بأنهم إخوان ، وبعد أن يختمر الإيمان فى نفوسهم يصبحون إخوة .

ولننظر فى غزوة بدر ، هاهو ذا مصعب بن عمير ، كان فتى قريش المدلل والمنعَّم الذى كانت تفوح منه رائحة العطر وملابسه من حرير ؛ كان ذلك قبل إسلامه ،

وتغير كل ذلك عندما دخل فى الإسلام ، فقد أخرجه الإيمان من هذا النعيم إلى بؤس المؤمنين الأولين لدرجة أنه كان يلبس جلد حيوان ويراه رسول الله فى هذا الضنك فيقول : « أنظروا كيف فعل الإيمان بصاحبكم » .

وعندما جاءت معركة بدر التقى مع أخيه « أبى عزيز » الذى ظل على دين قريش ، والتقى الإثنان فى المعركة ، مصعب فى معكسر المؤمنين ، وأبو عزيز فى جيش المشركين . وأثناء المعركة رأى أخاه أبا عزيز أسيراً مع أبى اليسر وهو من الأنصار ؛ فالتفت مصعب إلى أبى اليسر ، وقال : يا أبا اليسر اشدد على أسيرك فإن أمه غنية وستفديه بمال كثير .

فالتفت إليه أبو عزيز وقال : يا أخى أهذه وصاتك بأخيك ؟ قال مصعب : لا لست أخى وإنما أخى هذا . وأشار إلى أبى اليسر . لقد انتهى نسب الدم وأصبح نسب الإيمان هو الأصل ، وأصبح مصعب أخاً لأبى اليسر فى الإيمان ، وانقطعت صلته بشقيقه فى النسب لأنه ظل مشركاً .

وقوله تعالى : « فمن عفى له من أخيه شيء » كأنه يحث ولى الدم على أن يعفو ولا ينسى أخوة الإيمان . صحيح أنه ولى للمقتول ؛ لأنه من لحمته ونسبه ، ولكن الله أراد أن يجعل أخوة الإيمان فوق أخوة الدم . « فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف » .

وقد أورد الحق الأخوة هنا لترقيق المشاعر ، لينبه أهل القاتل والقتيل معاً أن القتل لا يعنى أن الأخوة الإيمانية انتهت ، لا . إن على المؤمنين أن يضعوا فى اعتبارهم أن أخوة الإيمان قد تفتر رابطتها . وحين يتذكر أولياء الدم أخوة الإيمان ، فإن العفو يصبح قريباً من نفوسهم . ولنا أن نلاحظ أن الحق يرفعنا إلى مراتب التسامى ، فيذكرنا أن عفو واحد من أولياء الدم يقتضى أن تسود قضية العفو ، فلا يقتل القاتل .

وبعد ذلك لننظر إلى دقة الحق فى تصفية غضب القلوب حين يضع الدية مكان

القصاص بالقتل . إن الدية التى سيأخذها أولياء الدم من القاتل قد تكون مؤجلة الأداء ، فقد يقدر القاتل أو أهله على الأداء العاجل ، لذلك فعلى الذى يتحمل الدية أن يؤديها ، وعلى أهل القتيل أن يتقبلوا ذلك بالمعروف ، وأن تؤدى الدية من أهل القاتل أو من القاتل نفسه بإحسان .

وقوله الحق : « عُفِىَ له من أخيه شىء » ، « شىء » تدل على أن أولياء المقتول إن عفا واحد منهم فهو عفو بشىء واحد ، وليس له أن يقتص بعد ذلك ، وتنتهى المسألة ويحقن الدم ، ولم يرد الله أن يضع نصا بتحريم القصاص ، ولكن أراد أن يعطى ولى الدم الحق فى أن يَقتل ، وحين يصبح له الحق فى أن يَقْتُل ؛ فقد أصبحت المسألة فى يده ، فإن عفا ، تصبح حياة القاتل ثمرة من ثمرات إحسانه ، وإن عاش القاتل ، لا يترك هذا فى نفس صاحب الدم بغضاء ، بل إن القاتل سيتحبب إليه لأنه أحسن إليه ووهبه حياته .

لكن لو ظل النص على قصاص أهل القتيل من القاتل فقط ولم يتعده إلى العفو لظلت العقدة فى القلب .

والثارات الموجودة فى المجتمعات المعاصرة سببها أننا لم نُمكن ولى الدم من القاتل ، بدليل أنه إذا ما قدر قاتل على نفسه وذهب إلى أهل القتيل ودخل عليهم بيتهم ، وبالغ فى طلب العفو منهم ، وأخذ كفنه معه وقال لهم : جئتكم لتقتصوا منى ، وهذا كفنى معى فاصنعوا بى ما شئتم ، لم يحدث قط أن أهل قتيل غدروا بقاتل ، بل المألوف والمعتاد أن يعفوا عنه ، لماذا ؟

لأنهم تمكنوا منه وأصبحت حياته بين أيديهم ، وفى العادة تنقلب العداوة إلى مودة . فيظل القاتل مدينا بحياته للذين عفوا عنه . والذين يعرفون ذلك من أبناء القاتل يرون أن حياة أبيهم هبة وهبها لهم أولياء القتيل وأقرباؤه ، يرون أن عفو أهل القتيل هو الذى نَجّا حياة قريبهم ، وهكذا تتسع الدائرة ، وتنقلب المسألة من عداوة إلى ود .

﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة فصلت)

ولو لم يشرع الله القصاص لأصبحت المسألة فوضى . لكنه يشرعه ، ثم يتلطف ليجعل أمر إنهاء القصاص فضلا من ولى الدم ويحببه لنا ويقول : « فمن عُفِىَ له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان » .

وهل من المعقول أن تكون الدية إحساناً ؟ لنتذكر أن القائل هنا هو الله ، وكلامه قرآن ، والدقة فى القرآن بلا حدود . إن الحق ينبه إلى أن أولياء الدم إذا ما قبلوا الدية ؛ فمعنى ذلك أن أهل القتيل قد أسقطوا القصاص عن القاتل ؛ وأنهم وهبوه حق الحياة ، لذلك فإن هذا الأمر يجب أن يُرد بتحية أو مكرمة أحسن منه .

كأن الحق لا يريد من أولياء الدم أن يرهقوا القاتل أو أهله فى الاقتضاء ، كما يريد أن يؤدى القاتل أو أهله الدية بأسلوب يرتفع إلى مرتبة العفو الذى ناله القاتل . وفى ذلك الأمر تخفيف عما جاء بالتوراة ؛ ففى التوراة لم تكن هناك دية يفتدى القاتل بها نفسه ، بل كان القصاص فى التوراة بأسلوب واحد هو قتل إنسان مقابل إنسان آخر . وفى الإنجيل لا دية ولا قتل : لأن هناك مبدأ أراد أن يتسامى به أتباع عيسى عليه السلام على اليهود الذين انغمسوا فى المادية . لقد جاء عيسى عليه السلام رسولاً إلى بنى إسرائيل لعله يستل من قلوبهم المادية ، فجاء بمبدأ : « من صفعك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر » .

ولكن الإسلام قد جاء ديناً عاماً جامعاً شاملاً ، فيثير فى النفس التسامى ، ويضع الحقوق فى نصابها ، فأبقى القصاص ، وترك للفضل مجالاً . لذلك يقول الحق عن الدية : « ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم » . وما وجه الاعتداء بعد تقرير الدية والعفو ؟

كان بعض من أهل القبائل إذا قُتل منهم واحد يشيعون أنهم عفوا وصفحوا وقبلوا

الدية حتى إذا خرج القاتل من مخبئه مطمئناً ، عندئذ يقتلونه . والحق يقرر أن هذا الأمر هو اعتداء ، ومن يعتدى بعد أن يُسقط حق القتل ويأخذ الدية فله عذاب أليم . وحكم الله هنا فى العذاب الأليم ، نفهمه على أن المعتدى بقتل من أعلن العفو عنه لا يُقبل منه دية ويستحق القتل عقاباً ، ولا يرفع الله عنه عذاب الدنيا أو الآخرة .

إن الحق يرفع العقاب والعذاب عن القاتل إذا قبل القصاص ونفذ فيه ، أو إذا عفى عنه إلى الدية وأداها . ولكن الحق لا يقبل سوى استخدام الفرص التى أعطاها الحق للخلق ليرتفعوا فى علاقاتهم . إن الحق لا يقبل أن يتستر أهل قتيل وراء العفو ، ليقتلوا القاتل بعد أن أعلنوا العفو عنه فذلك عبث بما أراده الحق منهجا بين العباد .

ولذلك يقول الحق :

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُولِي الْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾

وهنا نلاحظ أن النسق القرآنى يأتى مرة فيقول : « ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم » . ويأتى هنا ليقول النسق القرآنى : « ولكم فى القصاص » .

التشريع الدقيق المحكم يأتى بواجبات وبحقوق ؛ فلا واجب بغير حق ، ولا حق بغير واجب ، وحتى نعرف سمو التشريع مطلوب من كل مؤمن أن ينظر إلى ما يجب عليه من تكاليف ، ويقرنه بما له من حقوق ، ولسوف يكتشف المؤمن أنه فى ضوء منهج الله قد نال مطلق العدالة .